العدد التاسع والعشرون

المحور : الهوية والانتماء ومعايير العلاقات بين الأفراد والأمم

التكوين المتعدد المسارات للقوميات في أوروبا انعكاس تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية

محمود حداد *

ليس التطور الأوروبي نحو المرحلة القومية تطورًا أحاديًا أو واحدًا، فلقد كانت الطرق إلى هذه المرحلة الحديثة نسبيًا متعددة بحسب البلد الذي نختار الحديث عنه، كما لم يكن توقيت حصول هذا التحول إلى القومية متزامنا في القارة الأوروبية الممتدة من المحيط الأطلسي غربًا إلى جبال الأورال شرقًا وإلى البحر المتوسط جنوبًا.

لهذا، فإن القومية في أوروبا قوميات: إنكليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية ويونيانية وبولندية، إلخ، لكل منها ظروفها السياسية والاجتماعية والدينية.

من هنا، فإن النظرة الشائعة بأن القومية قد بدأت في أوروبا في القرن التاسع عشر إثر الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي الحديث فيها الكثير من التبسيط كما أثبتت الدراسات التاريخية الأخيرة.

وسنشير هنا إلى نماذج أوروبية ثلاثة تعطي فكرة عن تنوع وتعددية التبلور القومي وتطورها في أوروبا الغربية.

2- إنكلترا ونهاية الإقطاعية:

في أواخر القرن الخامس عشر حصل تحوّل كامل في تركيبة المجتمع الإنكليزي، بسبب "حرب الورود" أو (War of the Roses) التي انتهت عام 1485 بوصول سلالة تيودور Tudor الحاكمة إلى العرش الإنكليزي، قضت تلك الحرب على الأرستقراطية الإقطاعية التقليدية، مما أوجد فراغًا في أعلى الهرم الاجتماعي وأفسح في المجال لبروز نخبة رسمية هي الأرستقراطية التيودورية الجديدة، وتطابق بروز تلك الأرستقراطية الجديدة في ثلاثينات القرن السادس عشر مع إزاحة رجال الدين من مراكز إدارية حساسة، مما دفع العرش إلى الاعتماد على أشخاص عاديين من خريجي الجامعات، وتمتع أفراد الأرستقراطية الجديدة بقدرات ومستويات تعليم مميّزة، ولكن اختيارهم تمّ من الطبقات الأدنى، وأصبحت مرتبة النخبة- على الأقل مؤقتًا- تعتمد على المميزات العلمية أكثر من الأصول العائلية. تناقضت تجربة انتقال الأشخاص العاديين ليشكلوا الأرستقراطية الجديدة مع الوعي الاجتماعي الإقطاعي، وبما أنّ تلك التجربة كانت إيجابية

بامتياز، لم يكن الأرستقراطية أي اهتمام بالدفاع عن الصورة التقليدية للمجتمع مما جعلها تبدو غير طبيعية وغير شرعية؛ ولكنّها كانت مهتمة بتبرير تلك التجربة، وقد أدّى ذلك إلى إيجاد نموذج عقلي جديد؛ أي وعي اجتماعي جديد، وهو الوعي الاجتماعي الذي جاءت به الأرستقراطية التودرية بفكرة القومية.

في نهاية القرن الخامس عشر- وبسبب بعض التطوّرات في تاريخ الكنيسة- اكتسبت كلمة "أمة" معنى الإشارة إلى النخبة الثقافية والسياسية، لم تكن تشير إلى الشعب، كما هو الحال في الوقت الحاضر؛ بل كانت تقصد وحدة اجتماعية تفوقها بكثير؛ إذ إنّ كلمة "الشعب" - في جميع اللغات الأوروبية الأساسية- تعني بالذات الطبقات السفلى من المجتمع؛ أي "العامة" (أو أسوأ من ذلك "الحثالة").

وقد وُلد العديد من الأرستقراطيين الجدد كأفراد من الشعب بمعناه الحالي، وأرادوا محو المعنى المشار إليه بتلك الكلمة، وللقيام بذلك -من دون إنكار أصلهم- فقد توصّلوا إلى "اختراع" جديد كانت له دلالات تاريخية هائلة، لقد ساووا بين مصطلحين لم يكن هناك أي علاقة بينهما (بل كانا متناقضين إلى حدّ ما) وجعلوا كلمتي "شعب" و"أمة" كلمتين مترادفتين، وبالتالي ارتفع كل فرد من أفراد الشعب الإنكليزي إلى مرتبة النخبة؛ ليصبح- في المبدأ- مساويًا لأي فردٍ آخر، كما يصبح حرًا متمتعًا بحق الحكم الذاتي أو- بكلام آخر- بالسيادة؛ بينما تمّ تعريف الشعب (أو الأمة) أجمع باعتباره صاحب سيادة.

لاقت فكرة "الأمة"، أو "الشعب" كنخبة استحسان الأرستقراطية الجديدة؛ لأن الهوية عندها جعلت كل إنكليزي من النبلاء، ولم يعد الدم الأزرق شرطًا لأن ينتمي الشخص إلى الطبقات العليا من المجتمع؛ ولكنّ الأرستقراطية كانت أول فريق يقدّر حسنات تلك الفكرة؛ إلا- أن القسم من السكان الذي كان بحاجة إلى القوّة الشرعية والفكرية التي تعطيها تلك الفكرة كان في ازدياد. تعزّزت زيادة الطبقة العليا عددًا وثروة بسبب إعادة توزيع ممتلكات الكنيسة، وإعادة تنظيم المنطقة الريفية بتطوّرات موازية في المهن وفي أواسط التجار، أدّى ذلك إلى ظهور طبقة وسطى عريضة ومختلفة ذات نزعة للعمل والإنجاز، جذبتها فكرة "الأمة" مثلما جذبت الأرستقراطية الجديدة، برّرت مساواتها القائمة في الواقع مع الأخيرة في بعض المجالات، بالإضافة إلى أنّ آمالها بالانتقال إلى الطبقة الأعلى زادت من مشاركتها في العملية السياسية وأعطتها نفوذًا أكبر.

جلس ممثلو تلك الطبقة في مجلس العموم أو البرلمان؛ وبينما دفعهم إحساسهم القومي المتزايد للمطالبة بنفوذ أكبر في البرلمان، عزّزت أهمية البرلمان المتزايدة إحساسهم القومي، وقد ازدادت أهمية البرلمان بسبب اعتماد الثوريين الأوائل المتواصل على حسن نوايا عامة الشعب، واعتمدت سلطة الملك هنري السابع- الذي كسب العرش في المعركة- أكثر ما اعتمدت على استعداد الشعب لدعم شرعية الحكم، كما اعتمد على البرلمان في الأمور المالية؛ لذلك لم يكن يستطيع أن يظهر عدم الاحترام تجاهه، وأيضًا حتّم مركز الملك هنري الثامن اتخاذ موقف مُراعٍ للشعب وممثليه في البرلمان بشكل مستمر، مما

جعل البرلمان جزءًا من "الأمر المهم" في الانفصال الديني عن روما، ودعم لأسبابه الخاصة زيادة الوعي القومي.

3 - الإصلاح البروتستانتي ودور الدين:

تكمن أهمية انفصال الملك هنري الثامن (حكم بين 1509 و1547) في أنّها فتحت الأبواب على البروتستيانتية، التي كانت من أبرز العوامل التي عزّزت تطوّر القومية الإنكليزية، بالرغم من أنّ القومية سبقت الإصلاح الديني، وأسهمت في رواج فكرة القومية في إنكلترا، وازداد الوعي القومي المتنامي قوّة عندما التقى العاملان: الديني والقومي معًا. بالنسبة للعديد من العامة الإنكليز كان الإنجيل الإنكليزي والدعوة القوية غير المسبوقة إلى التعليم مساويًا عمليًا لتأثير الارتقاء الاجتماعي للأرستقراطية الجديدة، وارتقت أيضًا هذه الطبقة المتعلّمة، واكتسبت مكانة جديدةً ومشرِّفة ممّا عزَّز هويتها الوطنية.

4 - ترسيخ القومية:

تجلّى التحوّل في التفكير بطبيعة الحقيقة الاجتماعية أو التطوّر في الوعي القومي في تغيير المفردات، واكتسبت بعض المفاهيم المحورية في المحادثات المتعلقة بالقومية دلالاتها الحديثة، ودخلت في اللغة الإنكليزية في النصف الأول من القرن السادس عشر، خاصة وأن هنري الثامن جعل اللغة الإنكليزية اللغة الرسمية في البلاد، كانت تلك مفاهيم "الوطن" ، و"الجمهورية" ، و"الإمبراطورية" ، و"الأمة" ، وأصبحت تلك الكلمات (التي كانت حتى ذلك الوقت قليلة الاستخدام، وتحملٍ معاني مختلفة بعدة طرق عندما عبرت عن النظرة الإقطاعية للحقيقة الاجتماعية) مفهومة علىٍ أن بعضها مرادف لبعض، وأصبحت تعني "الشعب الإنكليزي صاحب السيادة" ، ولاحقًا- في أواخر القرن- تغيّر معنى كلمة "الوضعية" أو الـ"state" أيضًا، فقد (كانت تعني "المكانة") ، وقد أصبحت هذه الكلمة مرادفة "للأمة" و"الشعب صاحب السيادة" ، بالرغم من كونها تحمل دلالات عاطفية أقلّ من الكلمتين الأخريين، ومع المفهوم الإضافي "للحكومة الوطنية". وإذ بدأ استخدام كلّ هذه المفاهيم بين 1500 و1600 ، فإنه أثر على التفكير السياسي واللغة المستخدمة في المناقشات البرلمانية، وأصبحت الركائز الفكرية للمخيلة الجماعية الجديدة.

تطابقت تلك التغييرات الفكرية مع تغييرات في المشاعر، كما لوحظ ذلك في آداب النصف الأول من القرن السادس عشر عندما أصبح التعبير عن الوطنية القومية أي الولاء للشعب الإنكليزي والفخر القومي أو الفخر بالشعب وبالانتماء إليه، وفي الشعر والأدب العادي (وفي الأدب الديني أحيانًا) وفي المراسلات الخاصة؛ إلّا أنه لم يكن قد تمّ التعبير بشكل كامل عن الشعور القومي بشكل كامل حتى عصر الملكة اليزابيت الأولى(1558-1601م) ، وقد جاء التعبير الأكثر قوة عنه في كتاب رجل الدين البروتستانتي جون فوكس "كتاب الشهداء" أو "Book of Martyrs" الذي أدخل حسًا حيويًا جديدًا من القيمة إلى التاريخ الديني، وذلك بإعادة التعبير عنه من خلال الوعي القومي المدني الجديد.

5 ـ أمة من التجار والعلماء:

من الأمور المؤثرة في تاريخ العالم اللاحق المعرّف من خلال القومية وجها القومية الإنكليزية (التي كانت مثبتة بشكل كامل بحلول العام 1600) اللذان اكتسبتهما في القرن السابع عشر، كان هذان الوجهان هما الاهتمام بالعلوم أو الاعتقاد بالقوة الكبيرة والسلطة المعنوية للعلوم والقومية الاقتصادية.

أ ـ القومية ومأسسة العلوم

عادةً ما يُنظرُ إلى العلاقة بين القومية والعلوم على أنّها علاقة غير مباشرة، وهناك اعتقاد بأنهما مترابطان من خلال عملية الثقافة: من جهة تتطلب العلمنة وجود القومية بديلاً للدين، ومن جهة أخرى تجعل العلوم ممكنة؛ ولكن العلمنة لم تكن شرطًا ولا سبباً للعلوم ولا للقومية، وفي الواقع نشأ كلاهما خلال فترة تدين قوية كان مصدرها الإصلاح البروتستانتي، أو بالأحرى التحول إلى البروتستانتية، ولكنّ العلوم والقومية مترابطان، وبطريقة مباشرة، حيث إنّ القومية كانت هي العامل الأساسي وربما العامل الأهم في مأسسة العلوم.

وليس من الصدفة أن تكون العلوم أول ما تمأسس في إنكلترا، وقد عكست الفكرة الإنكليزية "للأمة" قيمة العقلانية، حيث إن استثمار العقل يساوي بين الأفراد ويخوّل كلّ واحد منهم حق اكتساب الحرية. **كانت تلك القيمة** مصدر المميزات الأساسية للقومية الإنكليزية، وهي العقل الناقد، وتفضيل المعرفة الحسّية، والتشكيك بالدوغماتية والحماسة المفرطة، لخّصت العلوم تلك المزايا، وشدّد أفراد الشعب الإنكليزي في أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر على العلاقة بين العبقرية والأمة الإنكليزية.

منذ بيكون Bacon، أخذت العلوم تُعدّ مؤشر تفوّق العصريين على التقليديين وانعكاسًا لعظمة الأمة، وفي المعركة القائمة بين العصريين والتقليديين عرّف الإنكليز أنفسهم على أنهم عصريون؛ لأنهم لم يستطيعوا المنافسة مع المنافسين الثقافيين لإنكلترا، وهما فرنسا وإيطاليا في العلوم التقليدية، ولكن في العلوم التي ما كانت قد تطورت بعد استطاعوا القيام بذلك بفعالية، ومنذ عام 1600 كان يُنظر إلى الإنجازات العلمية على أنّها التعبير الأكثر عظمة عن القومية الإنكليزية، وكان يتم استحضار العلوم الجديدة باستمرار لإظهار التفوّق الثقافي الإنكليزي.

بالنسبة للإنكليز كان السعي وراء العلوم مسألة وطنية رفيعة، ولاحقًا في القرن السابع عشر، وجزئيًا بسبب الصعود الواضح لإنكلترا تمّ الاعتراف بذلك من قبل الآخرين أيضًا؛ إذ سرعان ما لاحظ الأجانب تفوُّق العلوم الإنكليزية، وربطوا ذلك مع عظمة الأمة الإنكليزية، كان المتحدّث باسم الجمعية الملكية في إنكلترا يذكر عامة الشعب بإسهام العلوم في مكانة إنكلترا الرفيعة، واستخدم ذلك لتأمين الدعم المتواصل للنشاط العلمي وتنظيمه بشكل مركزي.

وبذلك لعبت العلوم دوراً مهماً في تعريف الهوية القومية الإنكليزية؛ ولهذا السبب أُعطيت مركزًا مشرِّفاً في الأمة، وتمّ إعطاؤها الدعم الاجتماعي القوي الذي كانت بحاجة إليه قيمة وطنية؛ لتصبح نشاطًا ثابتًا يغطي حاجاتها بذاتها، ومن خلال ربطها بالتعاطف القومي ارتفعت مكانة العلوم بشكل كبير، وجذبت إليها رجالاً طموحين ومقتدرين لو وُجدوا في ظروف أخرى لصرفوا طاقاتهم في مكان آخر، كانت تلك الحالة من الاستحسان الاجتماعي، الشرط الأساسي لمأسستها.

ب - القومية وبدايات الرأسمالية:

حصل تطوّر مماثل في المجال الاقتصادي؛ غيّرت القومية معايير الكرامة الإنسانية، وبالتالي اقترنت مع البروتستانتية في جعل الأنشطة الاقتصادية- خصوصًا الأنشطة التي تهدف لتحقيق الربح، التي كانت مذمومة من قبل- محترمة، ولأول مرّة في تاريخ أوروبا المسيحية أصبحت المشاريع التجارية أو الصناعية الموجهة لزيادة الثروات، أكثر منها لتأمين لقمة العيش- أو بكلام آخر لتحقيق النمو الاقتصادي- جذابة من ناحية أخلاقية؛ غَيَّرٍ ذلك- وبشكل كبير- تجربة الأشخاص في الطبقات الاجتماعية الواسعة التي كانت مضطرةٍ لضرورات الحياة للاهتمام بالأمور الاقتصادية، جاعلة تلك الاهتمامات أكثر نبلاً ورافعة لتلك الطبقات الاجتماعية، وقد بدت القومية الإنكليزية- بسبب طابعها الفريد- كقومية اقتصادية، وتمّ تبرير المشاريع الاقتصادية- معزّزة بالوعي القومي الإنكليزي- على أنّها تقدّم الخدمات للأمة. كان تحقيق الثراء للأمة الهدف الأسمى الذي عملٍ على تحقيقه كلّ من كان يعمل لكسْب لقمة عيشه. وبما أن ثراء الأمة كان يُقاس نسبة إلى ثراء الأمم الأخرى، أدّى ذلك إلى الاندفاع للمنافسة الاقتصادية وتحقيق النمو.

لم يكن من الممكن إنماء الاقتصاد الإنكليزي في القرن والنصف السابقين للثورة الصناعية دون الاحترام الذي حظيت به طبقات التجار التي- وباستثناءات قليلة مثل هولندا- لم تكن معروفة في أي مكان آخر ضمن الطبقات التي كانت تعمل لتحقيق لقمة العيش. علاوة على ذلك أعادت القومية في انكلترا- كما في أمكنة أخرى تعريف الطبقات الاجتماعية، وبرّرت الانتقال بسبب المهنة، الذي كان شرطاً آخر لا بدّ منه من أجل تحقيق النمو الاقتصادي، وبتشجيعها للعلوم كانت القومية مسؤولة- جزئياً- عن الإضافة إلى تلك العملية الجانب التكنولوجي الضروري لها.

فرنسا: القومية الغامضة:

1 - الهوية الفرنسية قبل القومية:

أ - القومية الفرنسية بوصفها هويةً دينية:

خلافًا لإنكلترا، كان هناك في فرنسا حسّ قوي بالانتماء إلى فرنسا، وكذلك وجود لهوية فرنسية واضحة قبل قرون من إعادة التعبير عنها كهوية وطنية، كان ذلك ممكنًا بسبب استمرارية المركزية المبكرة- وإن كانت نسبية- لسلطة الملوك الذين تبنوا الاسم الفرنسي،

وقد تمّ التعبير عن الهوية الفرنسية من قبل رجال الدين منذ القرن الثاني عشر. في ذلك الوقت وفي الواقع كانت الهوية هوية دينية، وحملت معنى الوعي للوضع الديني الفريد للمملكة، كان الملك الفرنسي وجميع التابعين له الأكثر مسيحية من جميع الملوك والتابعين لهم، وكان مما يميّز مسيحيتهم درجة الكمال التي تتحلى بها.

استخدمت فرضية تفوق درجة المسيحية عند الفرنسيين لتبرير المحاولات المتواصلة من قبل الملوك الفرنسيين لتحرير أنفسهم من سيطرة باباوات روما، وخلال تلك العملية أصبحت الكاثوليكية الفرنسية وبشكل متزايد أكثر خصوصية، وأصبح دين السلالة الملكية الفرنسية La religion royale العنصر المركزي فيها، كان ينظر للملك على أنّه ممثل الله على الأرض (وبالتالي جرى تخطي العلاقة مع الكنيسة بشكلٍ غير ظاهر).

وهكذا اختلط الدين بالسياسة، وفي أواخر القرون الوسطى في فرنسا ساد الاعتقاد بأنه إذا أردت أن تكون مسيحيًا صالحًا فيجب أن تعلن ولاءك الكامل للملك.

تعزّز ذلك التطوّر بشكل قوي بأحداث القرن السادس عشر، فقد أضعفت الحروب الأهلية الرابط بين "الفرنسية" و"الكاثوليكية" ، وطغت الهوية السياسية على الهوية الدينية، وانعكس هذا التحوّل في المركزية النسبية للولاءات السياسية والدينية في القول المنسوب لهنري نافار- القائد الهوغونوتي (البروتستانتي الفرنسي) Henry of Navarre ، الذي أصبح الملك هنري الرابع الذي حكم فرنسا، عندما تحوّل إلى الكاثوليكية-: "إن باريس تستحقّ القداس" Paris vaut bien une messe

عزّز وصول هذا الأمير- غير المبالي من الناحية الدينية- إلى العرش "الأكثر مسيحية" وعلمانية الهوية الفرنسية، وتحولها من شكلها الديني إلى شكلها السياسي، ومن المظاهر المتناقضة أن فكرة الحق الإلهي للملوك التي كانت أساس الاستبدادية الفرنسية متعلقة مباشرة مع هذا التحوّل.

ب - الاستبدادية الملكية والهوية الفرنسية السياسية:

كانت الهوية السياسية الفرنسية تدل ضمنًا على الانتماء إلى مجتمع المواطنين الخاضعين للملك الفرنسي، وهو مجتمع مؤلف من سلسلة من العلاقات التي تؤدي إلى الملك معرَّفاً بحدود سلطته، وشكّل ذلك المجتمع والمساحة التي تنطبق عليها السلطة الملكية والتي تحييها الدولة. كان المبدأ الأول وقتها أنه لا يمكن فصل "الدولة" عن شخص الملك، ولم تكن تلك "الدولة" سوى اختصار للامتياز الملكي، ولكن خلال فترة تولي الكاردينال ريشيليو- رئيس وزراء الملك لويس الثالث عشر- رئاسة الوزارة تغير معنى هذا المفهوم؛ ففي ظل حكومة ريشيليو ازدادت السلطات المعطاة للرسميين في دائرة الملك (خصوصًا تلك المعطاة لريشيليو نفسه) إلى حدّ دفع بعض الساخطين على نظام الحكم إلى القول بأنّ هناك مَلكَيْن في فرنسا. أصرّ ريشيليو على الولاء الكامل لإرادته على أساس أنّه يمثل سلطة الملك والدولة، وكان مدعومًا بقوة من الملك نفسه؛لكنه ذهب إلى ضرورة

تقديم الولاء له بحدّ ذاته، أما في ظل حكم الملك لويس الرابع عشر الذي قرّر أن يحكم دون رئيس الوزراء فقد أُعيد اتحاد الملك والدولة، ومن هنا جاء شعار لويس الرابع عشر الشهير: "الدولة أنا!"، ولكن بالنسبة للمستائين من سياساته أصبحت الدولة هدفاً يستحق الولاء له، ولحشد القوى من أجله، وبشكل منفصل عن الملك، الأمر الذي برّر استياءَهم، وشكل الأرضية الأخلاقية لمعارضة الاستبدادية الملكية، وعندما تمّ استبدال الدولة بالملك في أذهان بعض الفرنسيين تغيّرت هويتهم بالضرورة، وأصبحت هذه المرّة هوية وطنية.

2 ـ تفاعُلُ العوامل البنيوية والثقافية في تطوّر القومية الفرنسية:

تطوّرت الفكرة الفرنسية للأمة على أساس وضمنٍ الأفكار التقليدية الفرنسية للدولة، جعل ذلك طبيعة الفكرة الفرنسية عن الدولة مهمة للغاية لفهم القومية الفرنسية، ومن الأهمية التشديد على طابع الدولة التجريدي؛ أي أن الدولة هي تجسيدٌ للسلطة ولسيادتها المطلقة؛ أي أنها تخضع فقط للقانون الإلهي مباشرة، وإلاّ تكون هي مصدر القوانين، وعلى طبيعتها المتكاملة؛ أي أنها وحدة متكاملة غير قابلة للتقسيم، وليس لها سوى إرادة واحدة، وتدريجيًا أصبحت تلك مزايا "الأمة الفرنسية"، الأمر الذي يساعد على تفسير دور الدولة؛ أي الحكومة المركزية في فرنسا.

3 ـ إعادة تفسير فكرة "الأمة" في فرنسا:

كانت فكرة "الأمة"ـ بمعناها الحديثـ مستوردةً من إنكلترا، وتركز عليها انتباه النخبة الفرنسية (الأرستقراطية والمثقفة)؛ حيث إنّ انضمام المثقفين إلى الطبقة الارستقراطية شكل جانبًا مهمًا من إعادة تفسير هوية طبقة النبلاء في أوائل القرن الثامن عشر، وكانت هناك عدّة مزايا أوحى بها المفهوم الإنكليزي للفرنسيين، أخذت إنكلترا تحتل مكان فرنسا كقوة أوروبية، وكان يُنظر إلى نجاحها على أنه ذو علاقة بالقومية الإنكليزية ونوع الحكومة لديها، مما دفع العديد إلى تقليد ذلك المثال، وساد الاعتقاد بأنّ الأمةـ وليس الملكـ هي الشيء الذي يجب تقديم الولاء له، وهي التي تحمل معنى السيادة في إنكلترا، وكانت سلطة العرش محددةً بالبرلمان، كما أبقت الطبقة الأرستقراطية على نفوذها السياسي القديم.

عندما تمّ استيراد مفهوم "الأمة" إلى فرنسا، كان ينظر إليه على أنّه مرادف للنبلاء، وخلال القرن الثامن عشر توسع مفهوم الأمة الفرنسية تدريجياً، وحتى اندلاع الثورة الفرنسية في 1789 ظلّت القومية تنمو في دوائر النبلاء الذين كانوا على خلاف مع الملك، ولم يكن لديهم ما يبررون به مقامهم الرفيع سوى مصالح فرنسا، علاوة على ذلك ورثت الأمة الفرنسية مزايا الدولة الفرنسية، وكان يُنظر إليها كوحدة مجرّدة موحّدة غير قابلة للتقسيم وصاحبة السلطة بالضرورة، كان لديها إرادة واحدة مطابقة لإرادة الأكثرية، وهي إرادة يمكن تفسيرها من قبل النخبة التي تتحلّى بالفضيلة والذكاء. (كان أول من ادّعى هذا الدور الرفيع طبقة الأرستقراطية التقليدية؛ ولكن تمّ انتزاعه منهم إبان الثورة الفرنسية بواسطة أولئك الذين مُنعوا سابقاً من الانضمام إلى تلك الطبقة).

تعزّز هذا التفسير الجماعي والسلطوي للأمة بتغيير المشاعر تجاه إنكلترا، التي سرعان ما اكتسبت شكل الشعور بالبغض، وأدّت إلى إعادة تقييم المبادئ الإنكليزية، وكما ذكرنا سابقًا كانت إنكلترا قد أخذت مكان فرنسا كأكبر قوة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وفي محاولة للتلطيف من الإحساس بالدونية الذي أثاره ذلك التطوّر في شعور النخبة الفرنسية المؤمنة بفكرة القومية، حاول ممثلوها التقليل من شأن نجاح إنكلترا، وتصويرها على أنّها النموذج النقيض لفرنسا، ومن الواضح أن هذا الشعور بالبغض شجع تطوّر بعض العناصر داخل التقاليد الطبيعية (والتقليل من عناصر أخرى)، بدلاً من المجيء بأفكار جديدة؛ ولكنّها لو لم تشعل مشاعر العديد من المفكرين المؤثرين خلال تلك الفترة؛ لم يكن بإمكان تلك العناصر أن تصبح مركزية. كان هناك ما يكفي من الليبرالية الوسطية المستمدّة من حركة التنوير والميل إلى العقلانية والنظام في التقاليد الفرنسية لإنتاج القومية من النوع الإنكليزي.

هذا الشعور بالكراهية تجاه إنكلترا جعل هذا الأمر مستحيلاً في ذلك الوقت، كما أوجد إحساسًا بالتهديد المتواصل لكرامة فرنسا، وشجع في إيقاظ أحلام "المجد" التي جعلت القومية الناشئة قومية شرسة.

4 - الثورة الفرنسية تأكيد على القومية:

يبرّر تحليل دوافع المشاركين الأساسيين فيها القول بأنّ قيام الثورة الفرنسية هو- في الأساس- فعل تأكيد وطني للذات، وبحلول عام 1789 فاز- أخيرًا- الوعي القومي الجديد على منافسه القديم، الذي أصبح- في ذلك الوقت- مجرَّدا، وأعادت الأمة الفرنسية- أي ممثيلها المعينين من قبل الشعب المعرفين بالنخبة- تأكيد نفسها كقوة سياسية أساسية؛ على عكس إنكلترا، لم تعرف الأمة الفرنسية كوحدة مركبة؛ ولكن كمجموعة أفراد لها نفس الإرادة ونفس المصالح الخاصة بها، وكانت مستقلّة عن إرادة ومصالح الأفراد الذين يكوِّنون الأمة، ولها الأفضلية عليهم، كانت الأمة الفرنسية- إذًا- جماعية، وكجميع القوميات الجماعية كانت تميل إلى كونها سلطوية، وتشير إلى عدم مساواة أساسي بين مجموعة صغيرة من الأشخاص -عينوا أنفسهم معبرين عن إرادة الأمة أي القادة- وعامة الشعب الذين كان عليهم التأقلم مع تلك الترجمات.

في الوقت نفسه كانت القومية الفرنسية- مثل القومية الإنكليزية- ذات صبغة مدنية، لم تكن تصرّ على حصرية الانتماء الوطني، وبدل أن تعامل الغرباء على أنهم ينتمون إلى سلالة غريبة على الدوام، عاملتهم على أنهم أشخاص يمكن أن يتحوّلوا إلى العقيدة القومية الجديدة التي عينت فرنسا نفسها نبياً عليها، وقد كان ذلك الانفتاح- من بين أمور أخرى- قد سمح بجعل الرسالة التي نشرتها الجيوش الثورية تلاقي استحسانًا كبيرًا، وجعلت الثورة الفرنسية والحروب التي تلتها تتحوّل إلى عوامل أساسية في تطوّر القومية في أوروبا، جرى ذلك بالرغم من أنّ معظم القوميات التي نشأت في أعقاب تلك الأحداث كانت مُعادية للفرنسية.

اعترفت المعايير المدنية للانتماء القومي بحرية الأفراد، بالرغم من أنّ التعريف الجماعي للقومية الفرنسية لم يعترف بها، كانت القومية الفرنسية- إذا- غامضة وصعبة، وكان محتمًا عليها- مثلها مثل جميع القوميات من النوع المدني والجماعي- أن ترزح تحت وطأة التناقضات الداخلية، ويشهد التاريخ السياسي العاصف للأمة الفرنسية إلى يومنا هذا وبوضوح على تلك التناقضات.

ألمانيا – القضية الغربية "الشرقية":

1 - البورجوازية المتعلّمة:

خلافًا للقوميتين الإنكليزية والفرنسية، يعود الفضل في نشوء القومية الألمانية إلى مثقفي الطبقة الوسطى أكثر من الطبقة الأرستقراطية، كانت الأرستقراطية- لعدّة أسباب لا مجال لذكرها هنا- مكتفية بوضعها المتميّز في العديد من الولايات الألمانية، وكان مثقفو الطبقة الوسطى هم الذين اختبروا غياب الهوية والعزلة الاجتماعية، مما أدّى بهم إلى التذمّر والمطالبة بإعادة تعريف وضعهم الاجتماعي وبإعطائهم هوية جديدة.

كان مثقفو الطبقة الوسطى أو Bildungsbürger (البورجوازية المتعلّمة) نتاج الجامعات الألمانية، جاء العديد منهم من الطبقات السفلى؛ ولكنهم- بالإجمال، كمجموعة- كان من المفترض أن يتمتعوا بمكانة أعلى من أعضاء الطبقة البورجوازية التي لم تكن متعلمة، كان العلم- عمليًا- الطريق الوحيد للصعود في مجتمع ثابت لا- يعترف التحرّك الاجتماعي، وقد ساعد ذلك الأمر في تهميش "البورجوازية المتعلّمة"؛ إذ إن أفرادها كانوا لا- ينتمون إلى أي من الطبقات الاجتماعية المعترف بها. ومما زداد الوضع سوءًا في أواخر القرن الثامن عشر أن حركة التنوير- التي كانت الحكمة الفلسفية السائدة في العديد من الولايات الألمانية البارزة (بالأخصّ في بروسيا)- قد وضعت الثقافة في أعلى هرم الفضائل، وعزّزت ثقة المثقفين بأنفسهم، وشجّعت آمالهم بالوصول إلى المراتب الاجتماعية الرفيعة، وقد أدّى ذلك إلى زيادة كبيرة في أعداد المثقفين، وبالتالي انخفاض فرص العمل المتوافرة لهم، فوجدوا أنفسهم واقعين في مأزق البطالة، وكانوا شديدي الفقر ودائمي الاكتئاب؛لذلك انتفض بعضهم، ليس ضد النظام الاجتماعي غير المرحِّب بهم؛ بل ضد حركة التنوير ذاتها التي وعدتهم بالكثير وأعطتهم القليل، ونتج عن ذلك التغيير نشوء الرومانسية.

2 - الجذور الرومانسية للقومية الإثنية الجمعية:

شكّلت الرومانسية- وبشكل تدريجي- القالب الفكري للوعي القومي الألماني، الذي يفسر- إلى درجة كبيرة- طابعه الإثني الجمعي، بالإضافة إلى العديد من الخصائص الأخرى الخاصة به، أمّا الأمر الذي له أهمية خاصة في المضمون الحالي، وكان إلى جانب العقلية الرومانسية الموقف المعادي للغرب (خصوصاً لفرنسا ولإنكلترا أيضاً)، قبلت حركة التنوير الألمانية المثال الأعلى الأوروبي، ورأت في فرنسا وإنكلترا نموذجين يُحتذى

بهما، وإن استحقا الكراهية؛ لخروجهما على المبادئ، وميلهما للسطوة والسيطرة؛ حتى أنّ ممثليها كانوا ضد نظرائهم الفرنسيين؛ لأنّ الأدباء الفرنسيين سرقوا اهتمام ما كان يجب أن يكون جمهور الأدباء الألمان. وحوّلت الرومانسية هذه الغيرة المفهومة إلى أمر له علاقة بالمبادئ الرفيعة، وأعادت تعريف فرنسا وانكلترا بأنهما نموذجان مضادان، ورفضت النموذج الأوروبي الشرير.

ركّز الرومنسيون الألمان لفترة اهتمامهم على الأمور الخاصة تاركين التداعيات السياسية لفلسفتهم غير معبَّر عنها، وبالرغم من أنّه كان من مصلحتهم إعادة تعريف الولايات الألمانية (أو حتى واحدة منها) كأمة؛ لأن ذلك كان سيساوي بين المثقفين وبين الطبقة الأرستقراطية الرفيعة، ويؤمّن لهم الكرامة التي حرموا منها في الأنظمة الاجتماعية؛ إلا أنّهم لم يطالبوا بإعادة تعريفها. سيكون ذلك الأمر من دون فائدة؛ لأنّ القومية كانت بعيدة عن مزاج النخبة الحاكمة، وعن تلك الجماعات النافذة مثل النبلاء والبيروقراطيين، ولذلك فإنّ المثقفين الرومنسيين لم يكونوا قوميين؛أما الفضل في تغيير رأيهم فيعود إلى الاجتياح الفرنسي للولايات الألمانية في بداية القرن التاسع عشر وخصوصًا عند هزيمة بروسيا.

أ ـ احتلال جيوش نابليون والتحوّل من الكوزموبوليتانية إلى القومية:

كان أول تأثير لأبناء الثورة الفرنسية في ألمانيا إعادة إحياء المشاعر الكوزموبوليتانية، في البدء أعجب معظم المثقفين الرومنسيين الألمان بالفرنسيين، وفرحوا بالوعد الذي قطعته الثورة بالقضاء على الطبقات الاجتماعية في كل مكان، ولكنّ محاولات الفرنسيين الوفاء بوعودهم لم تجلب للطبقة المتعلمة Bildungsbürger المنافع التي نشدتها، وفي بعض القضايا المهمة (كما لدى فيخته Fichte) مَثّل ذلك تهديدًا لمصالحهم الشخصية، وفي الوقت نفسه قدّم الاحتلال الفرنسي للولايات الألمانية في نهايات القرن الثامن عشر فرصة نادرة للمثقفين لأن يتماثلوا مع النخبة الحاكمة، (ويمكنهم بذلك- على الأقل- رفع مستواهم وإن كان بطريقة رمزية)، وجعلت النخبة الحاكمة ميالة إلى تلك الجهود لتحقيق الأخوة، وإذ هاجم الفرنسيون النخبة الحاكمة قدّم الرومنسيون قضية النخبة الحاكمة على أنها "القضية الألمانية"، وتحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى قوميين ألمان (ربما كان Fichte النموذج الأول للتحوّل السريع من المبادئ الكوزموبوليتانية بالتعاطف مع الثورة الفرنسية إلى القومية الألمانية). رحّب الحكام- وخصوصًا في بروسيا- بجهود المثقفين الأصاليين، الذين لم يتنازلوا من قبل ويقبلوا الاعتراف بهم، واستخدموا القومية كأداة لدرء التهديد الفرنسي، وبما أنّه تمّ التشكيك بحركة التنوير وممثليها في ألمانيا (المنافسين الأهم للرومنسيين على استرعاء اهتمام الشعوب الناطقة بالألمانية) لارتباطها بالثورة الفرنسية وليدة حركة التنوير، أخذ الرومنسيون مهمة تشكيل الوعي القومي الألماني، واستطاعوا تعريفه بلغة الفلسفة الرومانسية.

ب ـ تأثير التقوى الدينية:

جمعت الرومانسية بين عدّة عناصر من فلسفة حركة التنوير، مثل الاعتقاد الراسخ بأولوية الأدباء واحتقار العقيدة الدينية، وبين عناصر من حركة دينية قوية في تلك الفترة تعارض أيضًا العقيدة الرسمية وهي التقوية (Pietism)، وقد جاء العديد من المؤسسين الأصليين للرومنسية من عائلات تقوية، ودرسوا في مدارس تعلم التقوى الطهورية، أو أنهم اطلعوا عليها من مصادر أخرى؛ لذلك كان التطلع إليها أمراً طبيعياً بالنسبة إليهم، وكانت التقوية شكلاً من أشكال الزُهد، وكانت ميزتها الأساسية ما سمي "العاطفية"؛ إذ كانت "دين العاطفة" التي تشكك بالعقلانية التي رأت أنها تحُول دون قدرة الأشخاص على التوحُّد بشكل صوفي مباشر مع الخالق، قامت الرومانسية بعلمنة تعاليم التقوى، واستطاعت الاستمرار بها في مناخ أصبح أقل تناغمًا مع الدين، تمثل رفض الرومانسية لحركة التنوير برفض عقلانية الأفراد. اعتقد الرومنسيون بأن التشديد على العقلانية والاستقلالية الفردية يشلّ الأشخاص ويفصلهم عن طبيعتهم الاجتماعية الحقيقية، ويساعد في تهميشهم وجعلهم يعانون من الوجوم والكآبة، وقد اعتقدت بأن الفرد المستقل هو بالضرورة غريب عن نفسه، ولا يعرف ما يعتبره الرومنسيون الفردية الحقيقية، التي ساووا بينها وبين "جماعية" الطبيعة الإنسانية. كلّ ذلك كان يعني بأنّ الأفراد الحقيقيين الوحيدين هم الجماعات وفقط، خلال الذوبان داخلها يستطيع الأشخاص استعادة ذواتهم الضائعة كي يصبحوا كاملين، ولأنّ دائرة نشاطهم كمثقفين كانت معرّفة أساسًا باللغة شدّد الرومنسيون على أنّ الجماعات اللغوية كانت مجموعة أفراد أخلاقية حقيقية، ووحدات إنسانية أساسية؛ ولكن بالنسبة لهم فإن اللّغة أساس مادي، وهي تتحدّد برابطة الدم، أو كما أطلق على تلك الرابطة لاحقًا العرْق.

وعندما تمّ إضفاء الصفة القومية على الفلسفة الرومانسية- في ظل الثورة، والاجتياح الفرنسي- أعيد تفسير فكرة الأمة كمجموعة طبيعية يجمعها العرق واللغة؛ لذلك تميزت تركيبة القومية الألمانية، بعدم حصر تعريف الأمة كمجموعة من الأشخاص فقط، كما كان الحال في فرنسا، ولكن، بالإضافة إلى ذلك، ولأنها كانت مجموعة إثنية، كانت العضوية فيها محدّدة طبيعيًا ولا يمكن اكتسابها ولا يمكن خسارتها إذا كان الشخص مولوداً فيها.

ج - القومية الألمانية، اليهود والغرب:

تركز البغضِ العميق الذي يحمله الرومنسيون تجاه حركة التنوير بشكلها القومي على فرنسا، ولاحقًا على إنكلترا والغرب ككل، منذ البدء جسّد اليهود- الذين عُرّفوا كعرق مختلف وليس كجزء من الأمة الألمانية، والذين تمت محاولة تحريرهم من قبل الفرنسيين والذين كان يُنظرُ إليهم بوصفهم مستفيدين من الإذلال الألمانيِ- الليبرالية الغربية والفردية والرأسمالية، كان اعتبار طبيعتهم الرديئة المفترضة يتمُّ وفقًا لمبادئ الفلسفة الرومانسية، كانعكاس لديهم (أو لتركيبتهم البيولوجية)، وليس لدينهم؛ ولذلك لم يكن هناك أمل بأن يتغيروا إلى الأفضل، ومن أجْل التأكيد على الطبيعة العرقية، وليس الدينية للمشاعر الألمانية المضادة لليهود، تمّ ابتكار كلمة ألمانية جديدة هي "معاداة السامية" Antisemitismus بالرغم من أنها بشكلها الحديث تمثل ابتكارًا ألمانيًا، لم تكن المعاداة

للسامية- كما نعرف- محصورةَ بألمانيا، كما لم يكن رفض المثال الأوروبي (الغربي) الذي كانت المعاداة للسامية جزءًا لا يتجزأ منه؛ ولكنّ من المفيد التأكيد بأنّه في أحوال أخرى- وخلافاً لأحوال أخرى- كان رفض ذلك المثال عنصرًا أساسيًا في الوعي القومي الألماني؛ لأنّه تمّ تركيب القسم الأكبر من الصورة المثالية للقومية الألمانية بشكل معاكس له.

ومن التناقض أنّ ذلك يعود إلى أنّ الغرب أو أوروبا كانت المثال الأعلى للأمة الألمانية أكثر بكثير مما كانت عليه بالنسبة لفرنسا أو إنكلترا؛ لأنّ هويتها الأوروبية كانت أحد الاهتمامات الرئيسة لألمانيا؛ لأنها كانت تعني الكرامة التي من دونها لم تكن هناك هوية للقومية الألمانية، وذلك بالنسبة لهؤلاء الذين قاموا بتعرّيفها، ويمكن المقارنة هنا مع تطوّر الهوية القومية في إنكلترا؛ حيث كانت الإنكليزية الأوروبية مهمَّشة إنْ لم تكن غائبة تماماً.

تأثّرت القومية الفرنسية إلى حدّ ما بوجود القومية الإنكليزية وبالمنافسة معها؛ ولكن مهندسي الوعي القومي الفرنسي لم يشكوا أبدًا بقدرة فرنسا على كسب المنافسة، بالرغم من انزعاجهم من الوقت الذي كان سيستغرقه ذلك الأمر نتيجة لا مبالاة إنكلترا تجاه ذلك التهديد، كما أنه لم يساورهم الشك بعضوية فرنسا، وحتى قيادتها لتلك الوحدة الأخلاقية والثقافية المتفوقة التي هي أوروبا الغربية، كانوا واثقين من أنّ فرنسا كانت هي أوروبا الغربية، وبأنّ وجودها هو الذي جعل أوروبا الغربية ما هي عليه؛ ولكن بالنسبة للمثقفين الذين ساعدوا في تشكيل الوعي القومي الألماني كان الأمر في غاية التعقيد. لا يمكن تفسير أقوال مثل تلك التي تعود إلى فيخته، التي تؤكد هوية ألمانيا الأوروبية بتحقير بقية العالم، مثل الأتراك، والزنوج، والقبائل في شمال أميركا، والتي تعيد تعريف الحضارة الأوروبية باستبعاد إنكلترا وفرنسا منها بسبب خطاياهما، وبوجود التشكيك فيما إذا ما كانت ألمانيا الأوروبية بالفعل والإدراك دون المثال الأعلى الأوروبي، ومن دون ذلك التشكيك لا يمكن فهم القومية الألمانية.

******

الحواشي:

*) باحث وأكاديمي من لبنان.